البطل في قصص الأطفال

أ.م.د. حسام عبد علي الجمل جامعة بابل/كلية التربية الأساسية

المقدمة

الأطفال جمهور كبير ومهم جداً فهو جذر المجتمع، وأساسه الذي يتطلع إليه المربون، وصناع الحضارة فهو يشكل ثلث المجتمع إن لم نقل أكثر من الثلث، فالأطفال بازدياد دائم والكبار في تناقص دائم جراء ديمومة الحياة، وسرمديتها وقاعدة واسعة يعتمد المستقبل عليها، لذلك فأدب الأطفال يحتاج إلى الكثير من الاهتمام والتركيز على ما يقدم من معلومات، فالطفل يحتاج إلى أدب مدروس، وموجهٍ بدقة وعناية فائقة لأنه وسيلة تسجيل واقتباس كبير وجهاز نقل فائق الدقة لما يعرض عليه ولهذه الدقة والتقليد يتحتم على المهمتين بأدب الأطفال التدقيق فيما يكتبون فأديب الأطفال يواجه مهمة مركبة فهو يحتاج إلى المزاوجة بين الشكل والمضمون لأنه يتحتم عليه إن يكتب موضوعات تربويه دقيقة للغاية ونافعة مصاغة بلغة فصيحة وسهلة وواضحة في آن واحد فالمهمة الملقاة على عاتقه ليست سهلة فهو يؤسس لمجتمع يفترض به الجودة والرقي، والموضوع طي البحث مساهمة بسيطة للسير في الاتجاه المذكور أعلاه وهو يعالج مرتكزاً أساساً في قصص الأطفال: هو البطل حيث أشار البحث إلى البطولة بشكل عام والبطل بشكل خاص، لذلك تقسم البحث على مبحثين، وتضمن كل مبحث ثلاثة أقسام، جاء في القسم الأول من المبحث الأول الحديث عن البطل الطبيعي وفي القسم الثاني البطل الإنسان وفي القسم الثالث البطل الحيوان، أما القسم الأول من المبحث الثاني فقد تحدث عن البطل من الكائنات الأخرى، والقسم الثاني من المبحث نفسه وازن بين البطل في الأسطورة والخرافة بشكل عام وعالج القسم الثالث من هذا المبحث البطل الأسطوري والخارق.

مدخل البطولة

البطل لغة:

جاء في لسان العرب: ((أن البطل الشجاع وفي الحديث: شاكي السلاح بطل مجرب ورجل بطل بين البطالة والبطولة شجاع تبْطلُ جراحه فلا تكترث لها وقيل إنما سمي بطلاً لأن الأشداء يبطلون عنده، وقيل: هو الذي تبطل عنده دماء الأقران فلا يدرك عنده ثأر من قومٍ أبطال[١])).

أما اصطلاحاً :

فالبطل كما يرى أحمد إبراهيم الهواري ((هو فكرة تعلو سلوك الشخصيات التي تتحرك حسب تصورات الكاتب))[٢]، ومهما يكن الأمر فأن مفردة البطولة ليست وليدة الساعة، بل هي ما تداوله الناس عن متميزي الرجال في التاريخ العالمي، ومع إن لكل مجتمع نظرته للبطولة ومن أين تأتي وللبطل وكيف يكون حتى غدت البطولة عملاً يشتمل في محتواه على اللصوص وشذاذ الآفاق له بعض الغارات التي تقوم بها القبائل بعضها على بعض والسلب الذي يتعرض له بعض الناس من قبل قطاع الطرق: ((لم يكن عملاً قانونياً فحسب وإنما هو عمل بطولي ومصدر شرفٍ ومجال مفاخرة،[٣])) وقد تطرق البعض ممن سبقونا في نظرتهم للبطولة حتى استوت عندهم الصورة بين من يموت بحق ومن يموت بغير حق أنه قد مات بطلاً لذلك فقد عد من العار عليهم ((أن يموت المرء على فراشه جراء كوارث الزمن على أن يبخل بنفسه وهو في بيته فيموت كميتة البعير[٤] وقد صار هذا هو قانونهم الطبيعي، وناموسهم الحياتي الذي يضعونه موضع الإكبار والإجلال ويعتبرونه ديدنهم في كل ما يذهبون إليه وفي ذلك يقول السموءل بن عادياء الغساني:

وما مات منا سيد حتف نفسه ولا طل منا حيث كان قبيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

لقد نمت هذه النظرة للبطولة على سوئها وتشويهها لحقيقة البطولة نتيجة لطبيعة البيئة التي يعيش بها العربي حيث تنمو لديه أنا القبيلة على حدٍ سواء مع نمو القيم النبيلة الأخرى، كالكرم، والشجاعة وما شاكلهما، فالجزيرة كانت ((من أكثر بلاد العالم جدباً وكان أهلها مقيدين بحدودها لا مناص لهم من الاكتفاء بما تنتجه أرضهم القاحلة، لذلك فإن نظامهم الاجتماعي أحل الغارة والغزو، ورفع مفهومه[٦])) إلى مصاف الأعمال البطولية العظيمة التي تبرز القبيلة وترفع رأسها جراء هذه الخدمة التي قدمها لها أبنها وأن ((قوة البطل الفرد لم تكن تمثل نفسه وتعود على شخصه بقدر ما كانت تمثل القبيلة وتعود عليها وكل ما يحرزه من مجدٍ ورفعه إنما عائد إليها[٧]))، ومما ذكر نفهم إن البطولة جذابة من حيث شكلها ترافق البطل وتضفي عليه وقعاً نفسياً يكتنف السامعين، والمشاهدين له، أما المضمون: فيمكننا استشرافه من خلال ما يقدمه البطل من تجارب تربوية تمد الحياة الإنسانية، وحياة الأطفال بشكل خاص بالكثير من العبر والدروس التي تسعد الإنسان وتحاول إكسابه خصالاً قد تكون جديدة عليه، وعند الأطفال خاصة عليه فان الأطفال ينظرون إلى البطل على انه قاهر الشر والعدوان ومحقق العدالة أينما كان وكيفما كان، أكان كائناً إنسانيا أم حيوانا أليفا، أم وحشيا لذلك نراهم يهللون ويصفقون وتبدو على محياهم علائم الفرحة والبهجة عند انتصار بطلهم في معركة أو منازلة وبالإضافة إلى ما مر فأن الحدث مهما كان نوعه وزمانه ومكانه ونوع الشخوص التي تؤديه يمكنه أن يفتح ذهن الطفل ويزيد من قدراته العقلية ويشبع فضوله ويزيد حب استطلاعه فيولد لديه دافعاً كبيراً للإبداع يتكون لديه حتى قبل أن يستطيع الكلام وانه يبدأ بالظهور قبل حبو الطفل فالطفل كلما نما أصبحت عوامل طلب المعرفة لديه أكثر قوة وتنوعاً وتعقيداً وأوسع مدى وإجابة على الأسئلة الكثيرة التي يتمخض عنها المفهوم المار ذكره يمكن تطوير تطويع القصص بحيث تصبح ملائمة للأطفال ومجيبه على كل سؤال يتوخاه الطفل ويبحث عن إجابته لذلك فمن الضروري تجديد أفكار الكثير من الحكايات الشعبية والخرافة وإزالة ما يشوبها من قيم سيئة وغموض يقف الطفل إزاءه حائراً لا يتمكن من فك رموزه وحل أحاجيه وصبها في أطرٍ أدبيه سليمة وتقديمها له عامل تجربة مضافة ونبراس خبره تدخل إلى نفسه بسهولة ويسر[٨] وعلى أن لا يكون ذلك على مستوى اللغة أو مستوى الاهتمام مما يدعو للمبالغة التي تنزل بالأدب إلى مستوى متدنٍ يفقده قيمته التربوية فالكاتب (القدير حين يكتب للأطفال لا يكتب بطريقة مختلفة أو باهتمام لمجرد انه يكتب للصغار أو لمجرد التفكير في إنهم لن يكونوا على إدراك كامل بالأسلوب أو بأسرار اللغة، ذلك لأن كاتب ((أدب الأطفال لابد له من أن يعرف الأصول العامة للكتابة الأدبية ثم يطبق معلوماته على ما يكتب للأطفال))[٩] بحيث يطرح عناصر العمل بكل وضوح ودقة وسلاسة تبعدها عن الغموض والتعقيد، فيعد جميع ((المواد التي عليه أن يتعامل معها كقوى وطاقات تبعث مشاعر ملذة، وكل واحدة من نوع يزيد أو ينقص خصوصية وتفرداً))[١٠] نتمكن من أن تصل إلى نفس الطفل فتؤدي ما وجدت من اجله من الأغراض التربوية والجمالية معاً مما يؤثر على سلوك الطفل بشكل عام فيخلق الأدب والاقصوصة كاتباً موجه وجهة تربوية وجمالية تكون جذراً اجتماعياً مرموقاً والأعمال الفنية يجب أن لا تثمن ((لما تقدمه من متعة جمالية مباشرة حسب))[١١] بل إلى ما تقدمه من متعة أدبية وتربوية كبيرة.

١٤١٣هـ ١٩٩٤م

المبحث الأول

القسم الأول

البطل الطبيعي

إن من يمعن النظر في الحياة يجد البطل شاخصاً في كل معالمها في البيت وفي المعمل وفي المزرعة وفي كل حركة تقريباً لذلك فأن ((الإنسان في تصور الإنسانيين ليس ((عرسة ضعيفة)) ولا فتيلة في مهب الريح إنما بطل جاء إلى الحياة ليحقق منجزات ومآثر عظيمة ولقد آمن الإنسانيون في طبيعة الإنسان الخيرة))[١٢] ومن هذا المفهوم ندرك إن البطل عام وليس خاصاً يحتاج إلى نوع خاص من المواصفات لكي يدرك هذه الدرجة عليه فان ((محاولة تفسير ظاهرة البطل تفسيراً خارجاً عن أطار الظروف الاجتماعية والبيئية والقدرة المميزة التي تفرض نفسها على الأحداث وتترك طابعها الشخصي والايجابي على التاريخ ومحاولة اعتباره تجسيداً لعقدة مكبوتة أو حالة مرضية تعد فصلاً واضحاً بين الإنسان وواقعه))[١٣]، وعليه فان البطل ليس كائناً خارقاً جاء إلى الحياة ليعيش بين مخلوقات اقل منه رتبة وأدنى درجة ((إذا حاولنا أن نفسر ظاهرة ميلاد البطل من خلال ذلك، فأننا نجد إن حكاية البطل منذ أن يولد حتى يتحقق له النصر، إنما هي تعبير عن سيطرة النموذج الأصلي الذي يدفع الإنسان إلى الوصول إلى الكمال فالطفل رمز للكل الكامل، ذلك لأنه مهد الطريق إلى التغيرات في المستقبل ولا يتراجع إلى الوراء))[١٤]، ويمكننا من خلال اعتماد العمل العلمي المنظم الذي ينبذ الاعتباطية والسذاجة في الكتابة الإبداعية بوضع رؤيا دقيقة لما يجب أن يكون عليه العمل الإبداعي بالكتابة للأطفال فأول ((ما يطلب من الكاتب، سواء استمد موضوعه من التجارب العادية في الحياة، أم تعدى نطاق المألوف إلى عوالم الخيال والخوارق أن يتحرك رجاله ونساؤه على صفحات القصة، حركة الأحياء الذين نعرضهم آو نعلم بوجودهم ويجب أن يحافظوا على مثل هذه الحركة طول القصة))[١٥]، بحيث تغدوا القصة صورة منقولة من الحياة كي تضمن لنفسها القبول والمعقولية عند الأطفال فيؤمنون بما جاء بها ويحولون ذلك إلى فعل تربوي سلوكي فيستطيع عند ذلك ((الكتاب أن يجعل من أبطال قصصه نماذج واقعية مؤثرة يشعر نحوها المراهق بمزيج من الصداقة والإعجاب والتقدير وتكون مثلاً يَرسمُ الطريق أمامه، ويثير أفق هذه الفترة الغامضة من حياته بحيث يجد بين سطورها نفسه الضائعة ويتلمس في ثناياها الإجابة عما يطوق ذهنه من أسئلة محيرة))[١٦] تتفجر في أعماقه جراء نموه الغريزي والجسدي ونمو القدرات العقلية التي تكبر وتتنامى بفعل العمر فتكثر الاستفسارات وتلح الأسئلة عليه، وأفضل من يجيب عن ذلك ما يقرأه أو يشاهده من قصص أو مسرحيات وإذا أمعنا النظر نجد أن حب الأطفال وغرمهم بالبطولة والمغامرة مرده إلى عوامل كثيرة من أهمها أن الطفل في الأعوام التي تسبق المراهقة يحاول أن يبحث عن ذاته ليجد له موقعاً شخصياً لكنه يفتقد الموازين التي تساعده على أيجاد أو تحديد القيمة السائدة له عند ذلك يعجب بشخصية بطل القصة أو الرواية أو المسرحية ولما يجد إنها مقبولة عند الآخرين وإنها تقدم له على أساس إنها النموذج الأمثل له يحول عند ذلك تطبيقها عملاً بسياسة الغالب والمغلوب المعروفة فنراه يقلد بينه وبين أقرانه الفرسان والأبطال وأشخاص القصص بأشكالهم وما يرتدونه وأقوالهم وما يتلفظونه وبما إن قصص البطولة تتنوع في أشكالها وضروب ما تقدمه وهي تنطوي على أنواع نموذجية للسلوك والمقدرة الإنسانية فنراه يقوم بتقليد كل ذلك وما تندرج تحت هذا البند من قصص الشجاعة والبطولة وقصص المقاومة وقصص الخيال العلمي والعادي وقصص التحليق في الفضاء وركوب المخاطر ...الخ[١٧] ومما تجدر الإشارة إليه هو أننا يمكننا أن نقول بان حب الوطن وتربية الطفل على الإخلاص إليه تتجذر في نفس الطفل منذ الأيام الأولى لتربيته حين تدله البطولات التاريخية لقومه على مجد الأجداد وتأريخهم التليد فسيحلم بتقليد ما أشيد به من تاريخ أجداده وتظهر في ذهنه صور مختلفة صور مختلفة لعظماء القادة والفاتحين وخيرة الأمراء والولاة وكما تتجسد في ذهنه صور الإيثار والتضحية في النفس في سبيل العقيدة والمبدأ، والعبرة لا تتمثل في الاطلاع على التاريخ وما يبرز فيه من

مجد وأمجاد وأعلم المقصود وهو التعرف على الشخصية وتمثلها عن كثب وتحويل هذا التمثل إلى فعل ومنهج[١٨]، وللأطفال إعجاب خاص بأقرانهم الذين يقاربونهم في السن عندما يختارهم أي كاتب أبطالا لقصصهم فالأطفال ((يتعلقون بالبطولة والأبطال ويغرمون بالقصص التي تتحدث عنهم لذا كان لبعض المجلات التي تتناول قصص البطولة والمغامرة انتشارٌ كبير بين جمهور الأطفال[١٩]))، أقصد المجلات التي تختار أبطالها من الأطفال وهو أمر بديهي لان الهاجس سيتوحد بين البطل في القصة والقارئ خارجها إذ أن الانسجام الزمني قائم خصوصاً إذا تمكن الكاتب من تقمص شخصية الطفل بدقة وإمعان وتمكن من خلق لغة مشتركة وانفعال مشترك يدعو الطفل إلى الانسجام مع بطل القصة المقروءة.

القسم الثاني

نوع البطل

الإنسان

للبطل في كل قصة خصوصاً إذا كان من الأبطال الايجابيين دور كبير في زرع الكثير من المفاهيم الأخلاقية السليمة التي تتبنى مجتمعاً سليماً لأنها تثبت في نفس المتأثر بها إذا كان كبيراً فما بالنا فيما إذا كان صغيراً وخصوصاً عند إعجابه بهذه المفاهيم وهذه القيم لذلك فقد قيل أعطني مسرحاً أعطك مجتمعاً كاملاً، ويمكنني القول أعطني قصة سليمة ناضجة أعطك جيلاً سليماً مرموقاً ويرى كرستوفر كودويل في كتابة دراسات إن البطل ((إنسان يكون تأثيره على بيئته أكبر بكثير من تأثيرها عليه. وهو يسيطر على الأحداث لأنه يساير القانون الذي جاءت الأحداث نتاجاً له. والبطولة ليست شيئاً ما يمكن أن يحدد من خصال شخصية البطل وحدها بل إن الظروف هي التي تخلق البطل ... فكما يجب أن يتوفر شيء ما في الأحداث، كذلك لابد من توفر شيء ما في الإنسان ... فهو يولد ولديه الاستجابات الفطرية والبيئية يتفاعلان في تشكيل وعيه، حيث يكون ذلك نتيجة لتأثير متبادل بين البيئة والاستعداد ينتج منه تطور مستمر للعقل[٢٠])) يخلق ذلك البطل النموذج الذي تسعى القيم لتقديمه للناس على انه المثال المقتدى وللأستاذ شكري عياد في كتابه البطل في الأدب والأساطير قول هو: ((لا تنتج الواقعية أبطالا على الإطلاق فالبطولة مهما يتنوع مدلولها فأنها لا يمكن أن تتفق مع الحتمية العلمية وقد تصل أفعال البطل إلى درجة ((الخوارق)) وقد تكون مجرد جرأة غير عادية في مواجهة القوى الخارجية ولكنها تحتفظ على كل حال بقدرٍ من الحرية هو الذي يجعلنا نشعر بالإعجاب بالبطل أو الإشفاق عليه[٢١]))، وقد تعددت القصص التي تزخر بالأبطال ومن ذلك القصص الشعبي وهي عطاء ثر لأدب الأطفال يستقي منه الكثير من قصصه والقصة الشعبية هي كل نموذج أو فكرة مكتوبة أو منطوقة تنقلها الجدات أو الأمهات أو الشيوخ على ألسنتهم وبصيغة ولغة بسيطة توارثتها الأجيال جيلاً عن جيل وقد اختلفت في مضامينها فمنها عن الحروب والغارات ومنها عن الجان والعفاريت ومنها عن الزواج والزيجات ومنها عن الأميرات وعلاقتهن بفقراء الناس إلى آخر التوليفات الفريدة، أما الشخصيات في هذا النوع من الحكايات فتبدو شخصيات مصنوعة وذات أبعاد مرسومه خالية من العمق والفلسفية ترمز للقوى الخيرة والشريرة وتسير بنمطية واحدة منذ بداية القصة حتى نهايتها فبطلها أو بطلتها، إما طيب يسعى بشكل بسيط إلى العيش أو إلى قضاء حاجة فتعترضه بعض العقبات ما يلبث أن يقضي عليها ويصل إلى هدفه المنشود إما بعد جهد بسيط وإما بعد التغلب على وشاية أو غنيمة كانت قد اعترضت طريقه ومن نماذجها أن زوجة الأب تأتي دميمة قاسية غاضبة بخيلة والبطل عادة جميل الشكل قوي شجاع وشهم ودودٌ ومتعاطف وأن الفقير دائما عطوف وسخي وكثير التحمل والصبر بينما الغني قاس ومتغطرس ومستبد يتستر على الجريمة ... الخ ويغلب على هذه القصص الاختراع الأدبي إذا صح التعبير فهي من نسيج الخيال الشعبي والفبركة الذهنية التي تخلقها نفس مغلوب أو ضمير مظلوم فيصب فيها

هواجسه وشعوره بالظلم والنقص فنراها تخرج من مواطن يشعر بظلم وطنه أو منتسب لقبيلة يحاول سيادتها على القبائل فيخترع لذلك الأبطال لقبيلته والشجعان لوطنه وكبار القادة لامته على أن يملأ بها فراغاً شغر في نفسه حزناً سيطر على قلبه وهي في الغالب ضربٌ من ضروب أحلام اليقظة فيحولها السائح فيها إلى قصة[٢٢]، ومما كُتِبَ للأطفال قصصٌ جديدة وضعها كتابها لكي تكون للكبار أصلاً ولكنها ولطبيعة أشخاصها وغرابه أشكالهم وأحوالهم استهوت الأطفال أكثر فانصرفت لهم على إنها قصص مكتوبة للأطفال ومن هذا الضرب قصص طرزان وقصص رعاة البقر وقصص الخوارق والتي تتضمن من ضمن ما تتضمنه اتجاهاتٍ عنصرية يتولى فيها البيض البطولة والسود والهنود والحمر أدوار الشر ومن القصص التي عدت من قصص الأطفال بعض قصص الفكاهة التي تمتاز بالإيجاز والوضوح وتتضح عقدتها الدرامية في آخر القصة وتناقش موضوعات عامة من حياة الناس اليومية وتتطرق في أحيان كثيرة فتطرح شخصيات بعيدة عن الواقع أو غريبة التناول وللمرح والبهجة مكانهما في قصص الأطفال ويكثر هذا النوع وذلك لصفاء نفوس الأطفال وميلهم إلى هذا النوع من القصص وتتحدث هذه القصص عن الكثير من المفارقات التي تثير الضحك والسعادة في نفوس الأطفال فيهللون لها ويصفقون ويقفزون في أماكنهم فتنتهي هذه القصص إلى بعض النوادر والمواقف الفكرية وغالباً ما تكون هذه الأقاصيص من الحياة اليومية وما تتضمنه من الهزليات والمصادفات القليلة الحدوث[٢٣] وللمحور العام في القصة دور أقصد الإنسان إذ أن موقعه ككائن لا يهتز مهما تغير نوع الشخصية وطريقة عيشها وأشكال الحوادث وطريقة تنفيذها لكن الموقع الإنساني في القصة يكبر ويرتفع بالدرجة المتمثلة في الصدق وقدرتها على تمثيل الواقع والحوادث وتقمص الشخصيات مهما اختلف نوعها سواء كانت طبيعية كالحيوان والنباتات أم غير طبيعية كالخوارق والأساطير وما تمكن الكاتب من تقريب الشخصية إلى درجتها الطبيعية، كانت القصة أكثر قدرة على إيجاد القبول والإقناع عند الأطفال[٢٤] ومما جاء يمكننا الحكم على نوع البطل من مقدار اقترابه من طبيعة القصة وما تتضمنه من واقع.

القسم الثالث

الحيوان

كما إن بطل قصة الأطفال من الطبيعي أن يكون إنساناً فمن الطبيعي أيضاً أن يكون حيواناً فالأطفال غالباً ما يغرمون بالحيوانات وخصوصاً تلك التي لا يتوجسون منها خيفة ولا يشعرون جراء اللعب منها بأذى ومشاهد سحب الحيوانات من رؤوسها أو ذيولها أومن أي جزء من أجزاء جسمها من قبل الأطفال مشاهد مألوفة جداً خصوصاً عند صغار الأطفال، عليه فأن هناك بعض الحقائق تفيد بأن العرب يملكون تراثاً قصصياً كبيراً جداً يدور حول قصص الحيوان سواءً ما ورد عن الجاهليين في كتب الأمثال أو الذي جاء على أقلام الأدباء العرب في الأمصار الإسلامية في حاضرة الحضارة العربية بغداد وما اتصل بها وقد ظهر هذا الأدب أول ما ظهر عند بني وادي الرافدين ثم أمتد أثره إلى الحضارات المحيطة بالحضارة العربية كاليونانية والرومانية والفارسية ...الخ[٢٥] أما فحوى هذه القصص فهي ما يكون الحيوان هو مدار القصة وشخصيتها الرئيسية وقد عرف الإنسان هذا النوع من القصص في حضاراته الأولى فخلق هذا النوع من القصص وأسبغ على الحيوان فيها نوعاً مما يسمى بالآدمية أي انه أنسن الحيوانات إذا صح التعبير أي حولها إلى أناس لهم نفس العادات والتقاليد الإنسانية ورأى على ألسنتهم الكثير من القصص والأحاديث وأفرز من خلال ما جاء لوناً من القصص يذهب مذاهب أخلاقية باتجاهه اتجاهاً تعليمياً وعظياً يفتقد فيه الحيوان إلى جوهر حيوانيته وماهية سلوكه ويتحول بذلك إلى إنسان ذو شكل حيواني هدفه تقديم الإرشادات والأوعاظ[٢٦]، ويبدو إن هذا النوع من القصص كما أسلفنا قد عرفته الإنسانية قبل أي لون قصصي آخر فقد ورد في قصص أوراق البردي وقد وجد هذا النوع من القصص درجة كبيرة من القبول والانتشار

فأسست الكثير من وسائل الأعلام المقروءة والمرئية والمسموعة برامج خاصة لهذا الضرب من القصص وذلك لأن هذا النوع يصلح للأطفال في مرحلة الطفولة المحددة بالبيئة ولكنهم بعد فترة يميلون إلى قصص الحيوان خصوصاً تلك التي تكون أبطالها حيوانات غريبة الأشكال والطباع وغير مألوفة إلى الأطفال في حواجزهم[٢٧]، وللتعرف على ماهية قصص الحيوان: هي حكايات قصيرة في الغالب رائدها نقل الأهداف الأخلاقية والتعليمية والحكمية والأدبية، وفي الغالب تكون الشخصيات حيوانية، وقد أكد تشيسترتون إن كل قصة لا يمثل الحيوان فيها الشخصية الرئيسة هي ليست من الأشكال الأدبية الرفيعة والقصص التي تدور على السنة الحيوانات ويمثلون فيها الأساس تطلب من قبل الأطفال أكثر من غيرها وقد أثرت (قصص الحيوان) أدب الأطفال بالحكايات الجميلة حتى إن أغلب الدراسات التي أجريت اثبت إن الأطفال أكثر إقبالاً وأشد تشوقاً إلى قصص الحيوان منها إلى غيرها من ضروب أدب الأطفال خصوصاً تلك التي تطرح موضوع الحيوان في الطبيعة ومع إن بعض كتاب قصص الأطفال قد يتطرفون أكثر فيقربون صور الحيوان إلى صور الإنسان في طبيعته البشرية إلا إن هذا الضرب يبقى بعد قصص الحيوان في طبيعته من حيث القبول عند الأطفال في أعمار مختلفة[٢٨] والسبب في ذلك يعود في أحيان كثيرة إلى أن الامتداد الوجداني بين الطفل والحيوان أيسر منه بينه وبين الكبير وذلك لان رابطة العفوية والبراءة أقوى بين الطفل والحيوان وخصوصاً أذا كان الحيوان اصغر حجماً وأكثر مسالمة للطفل من الإنسان لذلك فقد استوحى كثير من كتاب قصة الأطفال من الحكايات الشعبية أفكاراً قد وجدت مكانها في نفوس الأطفال وأحبوا أبطالها حتى حين يمنحها الكتاب صفات وتصرفات الإنسان[٢٩]، ولا غرابة في درجة قبول الأطفال لهذا النوع من القصص فقد ((تميز بعض كتاب هذه القصص أحياناً بمقدرة نادرة على التصوير الدقيق واللقطات العجيبة[٣٠])) التي تجذب الكثرة من الأطفال مع تغير الصور التي تعرضها الحيوانات إذا لم تخلو قصص الحيوانات من نوع من الشخصيات لم تتمثله وقد اتخذت الحيوانات في الخرافات واجبات مختلفة فهي تظهر بوصفها حيوانات معادية للإنسان كأن تكون من الأفاعي والتنينات والخراتيت التي تجسد الشر أو قد تكون حيوانات روحية تتوخى الواقع بحذافيره كأن تكون أماً رؤوماً تحنو على أطفالها كالطيور والعصافير والقطط أو تنصب من نفسها موضحة للطبيعة وشارحة للكون وما يحتويه[٣١] وقد تعدت واجباتها إلى أكثر بحيث أصبحت تفسر ما يغمض على الإنسان في هذا الكون كفكرة العالم الآخر وبعض الظواهر الطبيعية كظاهرة الليل والنهار وظواهر ما بعد الموت وكذلك بتجسيم صورة الحيوان إلى حد جعلها تتغلب على الإنسان وتفوقه في القوة والبطش[٣٢]، إن هذا التطور في قصص الحيوان لم يأت من فراغ إنما جاء من درجة تعلق الأطفال بهذا الضرب من القصص مما دعى كتاب القصص إلى الإبتعاد في كتابة القصة إلى هذا المدى تلبية للرغبة من قبل الأطفال ودرجة الإقبال على هذا النوع من القصص .

١٤١٣هـ ١٩٩٤م

المبحث الثاني

القسم الأول

الكائنات الأخرى

نعرف إن صورة البطل الإنسان أو صورة البطل الحيوان مأخوذة بالضرورة من الواقع الحياتي ويمكن الطفل تصورها بشكلها الواقعي الحي دون اللجوء إلى كد الذهن وتعب الخاطرة وإرهاق الخيال للوصول إلى النموذج المطلوب تمثله لكن بعض قصص الأطفال تميل إلى الإتيان بالأبطال من عوالم أخرى غير معهودة للطفل لذلك فهي تجبره على تخيل صور لم يألفها من قبل ولم يترب عليها في نشوئه، وهو بما يملكه من رهف حسي يساعده على تصور هذه الكائنات بشيء من اليسر فهو يمتلك قدراً كبيراً من التخيل الإنشائي والتكويني والهدمي يؤدي الأول إلى خلق الصور الجميلة في ذهن الطفل والآخر خيال هدام يقوض كل الذي ينشأ في ذهن الطفل من صور جميلة ثم يبعده إلى خلق صور للأشباح والعفاريت التي يجنح أليها ذهن الطفل فالخيال والاستطلاع عمليتان تسيران في ذهن الطفل جنباً إلى جنب فيمتد الخيال في ذهن الطفل إلى عوالم رحبة تخلق له مختلف الصور التي يختلط فيها الماضي بالحاضر فينتج عن ذلك جملة من الشخصيات التي يفتقدها الواقع ومما يساعد على ذلك قصص العفاريت والسعالي وقصص الخيال العلمي وقصص الأشكال الشيطانية وقدرتها السحرية حيث تتوق نفس الطفل إلى مشاهدة ما هو خارق وغير طبيعي متحققاً أمام مخيلته حتى ولو كان ذلك في أحلام اليقظة ويعود حبه لذلك إلى عوامل متعددة منها التصوير المتطرق للشخوص حيث إن قدرته على التجريد محدودة جداً حيث إن الأبطال الخرافيين يظهرون بشكل هلامي فاقد للملامح من حيث الشجاعة والجبن والذكاء والغباء وما يرسم للبطل صورته هذه هو حاجة القصة للحالة المطلوبة ولا يمكن للقاص أو الطفل أن يضع للخرافة، أو لأبطال الخرافة زماناً محدداً، أو مكاناً محدداً، أو حتى رمزاً ثابتاً فهي نسبية يصفها الكاتب ويتصورها الطفل وهي في الغالب تستمد مادتها من العقائد الدينية ومن الأساطير التي تتحدث عن الآلهة أو الأبطال الذين سرت فيهم دماء الآلهة وأنصاف الآلهة[٣٣]، إن خيال الأطفال أذن هو الذي يساعد أحياناً على خلق الشخصيات الأخرى من غير الإنسان والحيوان والنبات وعليه المعول في بناء القصة وخصوصاً قصص الخرافات والشخصيات الوهمية بالذات وفي ذلك يقول جمس ريفز كاتب أدب الأطفال المعروف: ((إن الأطفال يحبون الخرافات لأنها بسيطة وسهلة التذكر ولأنها حقيقة للإنسانية، إذ إن الحيوانات تمثل حالات مختلفة من الطبيعة الإنسانية [٣٤])) وقد يكون الخيال خالق الأبطال الخرافيين محقاً في كثير من الأحوال وذلك لأنه من صنع إنسان واع لما يكتب وموجه ممتاز لأنه يضع لكل عقد حلاً فيختار الإيجابي للإيجابي والسلبي للسلبي كعلاج مصنوع يضعه الإنسان نفسه لأن: ((أول ما يسترعي النظر في الحكاية الخرافية هو اتجاهها الأخلاقي فهي تكافئ الخير بالخير والشر بالشر، ثم هي تصور الأمور كما يجب أن تكون الحياة[٣٥])) من هذا ندرك إن هذا الضرب من الأبطال هو مخلوقات صنعها الإنسان بإرادته ومزاجه ووضع فيها أخلاقه وتصوراته للأمور فهي بشكل أوضح دمى متحركة وضع لها الكاتب خط سيرها.

القسم الثاني

البطل بين الأسطورة والخرافة

يهتم الطفل اهتماماً ثانوياً بالأجواء الموجودة بالقصة، وما يهمه ويأخذ لبه بالدرجة الأولى هو البطل الذي تعرضه القصة أو المسرحية أو التمثيلية المنقولة عن القصة وقد اختلف الأبطال في تاريخ أدب الأبطال منذ بدايته وحتى يومنا هذا فمن الكتاب من تحدث على لسان الحيوان ومنهم من تكلم على لسان شخصيات وهمية غير موجودة بالأساس لا سابقاً ولا لاحقاً وهو ما يرد الأسطورة (الميثولوجيا) مع إن: ((الإنسانية قد تخطت عهد الأساطير منذ أمد بعيد، ولا يمكن أن نجد في

الوقت الحاضر من يكتب الأسطورة، وتبدو لنا اليوم (أكذوبة كبيرة[٣٦])) على إن بعض كتاب الأطفال يلجؤون إلى عرض الحكايات الشعبية وبعض الخرافات على أساطير منظمة يمنحونها تسميات وصيغ خاصة بذلك وهذا وهم وخلط كبير بين الأسطورة كعقيدة مارسها الأقدمون وآمنوا بها وصدقوها وبينها كموروث شعبي لأدب شائع ومن ميزات هذا الموروث فردية البطل أو البطلة الذي يقوم أو تقوم بأحداث القصة حيث تأتي بأفعال تثير الدهشة والعجب، ومن الجدير بالإشارة هنا إلى إن الفعل واجب بين علم الأساطير وعلم الخرافة وبين الموروث الفولكلوري السائد فالأسطورة تسمى بها بعض الشعائر الدينية عند قيام الناس بالمناداة بها ومحاولة ممارستها كطقس ديني أما الفولكلور فهو نمطية سلوكية خاصة ورثها الناس عن أسلافهم تتمثل في بعض الممارسات الخاصة التي قد لا تتعلق بالدين أو بالحدث[٣٧]، وقد يلجأ بعض كتاب هذا الضرب من الأدب إلى ((التصوير المحض للحيوان أو النماذج التي جعلت من الحيوان مخلوقاً أعلى في مرتبته الحيوانية وهي حالة جلبها العطف على الحيوان أو معايشته في الصحراء وفي الأماكن المنعزلة[٣٨])) ولا بد من الإشارة هنا إلى إن الأدب السومري ثم البابلي هو الذي أتحف العالم بالكثير من هذه الضروب من الأدب [٣٩]، وللدكتورة نبيلة إبراهيم في هذا المجال رأي تجدر بنا الإشارة إليه حيث تقول: كثيراً ما تردد على الألسن كلمتا خرافة وأسطورة بوصفهما كلمتين مترادفتين، فالأسطوري والخرافي كلمتان متساويتان تماماً في معنييهما عند كثير من الناس وذلك لأن كليهما تصور الشيء البعيد عن المنطق والمعقول ... ولكننا ولكي ندرس الأنواع الأدبية الشعبية يتحتم علينا أن نفرق تفرقة تامة بين الأسطورة والخرافة، إذا إنهما نوعان أدبيان يختلفان تماماً من حيث الدافع والشكل[٤٠])) وفي الحق فإن الصلة بين الخرافة والأسطورة قائمة في أنهما يسعيان لتحقيق هدف واحد بعينه هو ترتيب نظام الحياة على وفق نسق واحد ولكن الأسطورة تختلف في انتمائها إلى نمط روحي غير الذي تمثله وتنتهي إليه الخرافة ومع أن البطل في الأسطورة الطقوسية أو في أسطورة الخلق هو الإله نفسه فان البطل في بعض قصص الأطفال هو ضرب من المزج بين الإله والإنسان الذي لا يرقى إليه الناس العاديون في شيء سوى الشكل وبعض القدرات وإذا كانت مهمة البطل تنظيم الحياة والتعامل مع كل ما هو جميل وقيم فيها فالبطل المؤله له صفات تحاول أن تصله إلى مصاف الإله لكن طبيعة العمل الأدبي الإنساني ترابطه إليها لذا نرى إن الطفل أشد تعلقاً والتصاقاً بما يأتيه البطل الأسطوري من تصور كبير وباعث هائل للخيال الذي يكشف حياة الأطفال في مرحلة الطفولة مما يعزوه (فرويد) إلى اللاشعور وما يستكن فيه فالأسطورة ليست إلا تعبير خيالي عن اللاشعور الجمعي الذي يعيش في نفس خالق الأسطورة وهو يقترن عند ذلك بالخيال الطفولي ولما كانت الأسطورة أكثر تميزاً من الخرافة فان البطل الأسطورة هو ذلك المخلوق الذي يأتي إلى الحياة غريباً منبوذاً وكأن الحياة كلها ترفضه ولكنه وبصورة فريدة وجديدة على الحياة يشق طريقه ويقف على قدميه فيشارك في خلق صورة عصامية للحياة لا يمتاز بها غيره[٤١]، فتصبح الأسطورة عند ذلك تجسيداً لإرادة الجماعة وقدرة على التعبير وخصيصة جديدة تستطيع أن تستقطب الوعي الذي تستشعره أو صورة من صور الحياة التي يعيشها الأفذاذ وتعني إن البطولة أصبحت عملاً اجتماعياً فذاً وصار البطل في ظلها تعبيراً عن مكنون الأرواح التواقة إلى الرقي وتحدي الصعاب[٤٢]، وللدكتور عبد الحميد يونس رأي يخالف فيه وجهه نظر الدكتور نوري القيسي التي عرضنا لها ضمن الرأي السابق يعرض فيه إن الأسطورة لم تكن سائبة في يوم ما أو محدودة بحدود تفصلها عن مثيلاتها من ركائز القصة بل إن: ((الجسر الذي يصل بين الأسطورة والحكايات الشعبية هو تلك الملاحم التي تحكي وقائع الأبطال في توحيد عناصر مجتمع من المجتمعات أو الانتصار على طائفة من الأعداء أو اقتحام العدد العديد من الأهوال والعقبات[٤٣]))، وللأسطورة دورها في تاريخ الأعمال الدرامية سواء للأطفال أو للكبار و((قد أصبحت الأساطير مادة خصبة من مواد الدراسة الإنسانية ولها علم قائم برأسه هو علم ((الميثولوجيا)) أو علم الأساطير وتعد هذه المادة بمثابة المنبع أو الأصل الذي تتفرع عنه الحكاية الشعبية[٤٤]))، وأرى بدوري أن الأسطورة كفن يدخل في قصة الطفل أو أدبياته بات أمراً نادراً وقد أهمله المهتمون بأدب الأطفال، إذ انتقل كتاب

الأطفال إلى أدب أكثر تيسيراً كقصص الحيوان بشكلها المتطور ومفهومها الحديث وان الاكتشافات العلمية غدت تقدم لأدبيات الأطفال مادة خصبة أكثر غنىً وواقعية فانحسرت بذلك مواد تحتاج إلى قابلية كبيرة في جعلها قابلة للتصديق من قبل الأطفال.

القسم الثالث

البطل الأسطوري والخارق

للأبطال في قصص الأطفال وخصوصاً الخارقون والأسطوريون ميزات مختلفة تماماً عن أبطال القصص العادية فهم يمتازون ((بالجدية والاكتئاب والعنف الشديد، بخروجهم على القوانين والأعراف والتقاليد، ويشوب التطور في هذه القصص كثيرٌ من الافتعال والفبركة، حيث تتلاحق الوقائع العنيفة[٤٥])) ومن المعروف أن الأبطال من الأساطير والخوارق كائنات لا يتمكن من مشاهدتهم أحد وهم في الغالب غير معنيين أو شريرون أو خبثاء يسعون لإيذاء الناس، أشقياء ساحرون ينتشرون في كل بقاع العالم وحكاياتهم أقرب ما تكون حكايات خارقة لا يعيشها الناس في الواقع وإن البطل الرئيس يعتمد على أبطال فرعيين في تنفيذ أهدافه[٤٦]، وهناك من يرى أن الأبطال في الأساطير والملاحم كائنات إنسانية لها قدرات خارقة تتمكن من تحقيق أهدافها بمعاونة الآلهة مع إنها من البشر وللحيوان في قصص الأطفال دوره كما ذكرنا في أكثر من مكان في هذا البحث فهو يتولى الدور الرئيس في القصص التي تتخذ منه بطلاً وهو في بعضها امتداد للأسطورة يتضمن فيها خرافة أو ملحمة الوحوش كما يقال وهو مهما يكن في كونه حيواناً أو فيما اكتسبه من صفات إنسانية كالنطق أو اللغة السليمة فهو أساس في الأساطير في آداب العالم المختلفة وخصوصاً القديمة منها، ومن ضمن ما تتضمنه قصص الأطفال من أبطال ما هم من الجان وهم مخلوقات قلما تؤذي الناس والأطفال بشكل خاص إذا ما استحوذ احدهم على طفل ما بأية طريقة أو شكل ولا شك في إنهم عدوانيون لو أُسيئت معاملتهم فيميلون إلى التخريب وإتلاف كل ما يقع تحت طائلتهم مع إنهم يميلون بطباعهم إلى المرح والدعابة واللعب ويمارسون في سلوكهم الكثير مما يجيد ممارسته الإنسان بشكل خاص مع عطفهم على ضعاف الحيوانات والناس فيساعدون الفقراء ويقدمون لهم الطعام والمساعدة ولنا أن نذكر إن أبطال قصص الأطفال من الجان ينقسمون على فئتين الأولى ايجابية تعمل لتحقيق القيم والأخلاق النبيلة والثانية سلبية تقف بالمرصاد إلى كل ما هو خير ولا بد لنا من رفض سلوكها وهي تعيش بشكل وطريقة خاصة مثل المردة والعفاريت التي تعيش في أماكن خاصة بها فالسمندل يعيش في النار والجنيه تسكن البحار ولها أماكن أخرى كالشجر، والهواء، والصخور ويمارس البعض الآخر أشغالا مختلفة يغلب عليها طابع البساطة وكيفية عرض هذا الضرب من الكائنات الأسطورية يتوقف على الكاتب ولاتصال البشر بهذه الكائنات طقوس ومراسيم تتسم بنوع من الغرابة والطرافة[٤٧] في كيفية العلاقة الإنسانية مع هذه الكائنات وبإمكان كاتب قصة الأطفال أن يصل إلى مبتغاه بالعمل على إبراز الجوانب الايجابية لمثل هكذا مخلوقات مادامت هي بالأساس كائنات وهمية لا صدق لدورها في الحياة .

الخاتمة

في ختام هذا البحث لابد لنا من الإشارة إلى أهمية الإكثار من الكتابة للأطفال لأكثر من سبب منها إن كاتب الأطفال بإمكانه بناء شخصية رصينة واضحة المعالم والأفكار مستقيمة قويمة السلوك والتصرف وهو بذلك يقدم بدوره ما يطلب منه أخلاقياً واجتماعياً، فأدب الأطفال يشكو من قلة المطبوع والمكتوب فيه بعمق وغزارة وما مطبوع ومطروح في الأدبيات العربية على أقل تقدير لا يتناسب مع عديد الأطفال الهائل وهو بحاجة لان يصل إلى مخاطبة عقول الأطفال بعمق وموضوعية دقيقة نابعة من الارتكاز على الدراسات النفسية الخاصة بالأطفال القائمة على علم نفس الطفل لكي يتمكن من النفاذ إلى عقول ونفوس الأطفال فيفي بذلك بالغرض المطلوب، ويبتعد عن حكايات وأقاصيص العجائز والجدات التي قد يكون ضررها أكبر من فائدتها بكثير.

هوامش البحث

١. لسان العرب، ٥٦:١١
٢. البطل المعاصر في الرواية المصرية، ص ٧٦.
٣. سيرة عنترة، ص٢٠.
٤. ينظر شعر الحرب في أدب العرب، ص٢٧.
٥. شعر الحرب في أدب العرب، ص ٣٧.
٦. سيرة عنترة،ص ٢.
٧. سيرة عنترة، ص ٤٥.
٨. ينظر أدب الأطفال فلسفته فنونه ووسائطه، ص ١٧٦-١٩٩.
٩. الأدب وبناء الإنسان، ص ٦١.
١٠. الجمالية، ص ٤٢.
١١. الجمالية، ص٢٢.
١٢. موجز تاريخ النظريات الجمالية، ص ٨٣.
١٣. البطولة في الشعر الجأهلي ، ص ٧٨
١٤. أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص ١٣٥
١٥. فن القصة، ص ٩٠
١٦. فن الكتابة للأطفال، ص٦٠ .
١٧. ينظر أدب الأطفال، ص١٥٣ -١٥٨
١٨. ينظر الأدب وبناء الإنسان، ص ١٨٥-١٨٦
١٩. أدب الأطفال، ص ١٥٣ .
٢٠. نقلا عن كتاب البطل المعاصر في الرواية المصرية، ص٢٠
٢١. البطل في الأدب والأساطير، ص١٥٨.
٢٢. ينظر الأدب والإنسان، ص ١٧٢-١٨٠
٢٣. ينظر أدب الأطفال، ص ١٦٣-١٧٠
٢٤. ينظر فن القصص، ص ٩٨
٢٥. ينظر كتاب قصص الحيوان في الآداب العربي القديم، ص٩
٢٦. ينظر الأدب وبناء الإنسان، ص ١٥٨-١٦٠
٢٧. ينظر أدب الأطفال، ص ١٥٠-١٥٢
٢٨. ينظر الأدب وبناء الإنسان، ص ١٥٨-١٦٧
٢٩. ينظر أدب الأطفال، ص ١٤٩-١٩٧
٣٠. كتاب قصص الحيوان، ص١٥
٣١. ينظر أدب الأطفال، ص١٥١
٣٢. ينظر الأدب وبناء الإنسان، ص١٧٥
٣٣. ينظر أدب الأطفال، ص ١٨٣-٢٠٤

٣٤.نقلاً عن كتاب الأدب وبناء الإنسان، ص ١٧٠

٣٥.أدب الأطفال، ص ٢٠٤

٣٦.نفسه، ص ١٩٣

٣٧.ينظر نفسه، ص ١٩٣

٣٨.كتاب قصص الحيوان ص ١٦

٣٩.ينظر نفسه والصفحة نفسها

٤٠.أشكال التعبير في الأدب الشعبي ص ١٠

٤١.ينظر نفسه ص٩٠ -١٣٠

٤٢.ينظر البطولة في الشعر العربي، ص ٧٧-٩١

٤٣.الحكاية الشعبية، ص٢١

٤٤.نفسه، ص١٥

٤٥.أدب الأطفال، ص١٦٣

٤٦.ينظر نفسه ص ١٦٣-١٦٤

٤٧.ينظر الحكاية الشعبية، ص٢١-٥٠

روافد البحث

- أدب الأطفال فلسفته فنونه وسائطه؛ إلهيتي ،هادي نعمان وزارة الإعلام بغداد ١٩٧٧
- الأدب وبناء الإنسان ؛الحديدي ،علي (دكتور)منشورات الجامعة الليبية كلية التربية ١٩٧٣
- أشكال التعبير في الأدب الشعبي ؛إبراهيم ،نبيلة(دكتور)دار النهضة مصر .
- البطل المعاصر في الرواية المصرية ؛الهواري ،أحمد إبراهيم دار الحرية وزارة الإعلام بغداد ١٩٧٦
- البطولة في الشعر الجأهلي ؛علي،نوري حمودي (دكتور)مجلة دراسات للأجيال العدد الأول السنة الأولى مطابع ثنيان بغداد ١٩٨٠
- الجمالية ؛ر.ف.جونسون ؛ترجمة د.عبد الواحد لؤلؤة وزارة الثقافة والفنون بغداد .
- الحكاية الشعبية ؛يونس ،عبد الحميد (دكتور) ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨
- سيرة عنتر ؛ذهني ،محمد (دكتور) ،دار المعارف مصر ١٩٧٩
- شعر الحرب في أدب العرب ؛ ألمحاسني ،زكي (دكتور)دار المعارف مصر ١٩٦١
- فن القصة ؛نجم ،محمد يوسف(دكتور) ،دار الثقافة بيروت .
- فن القصص ؛تيمور، محمود مطبعة دار الهلال ط٢ مصر ١٩٤٨
- فن الكتابة للأطفال ؛نجيب ،أحمد ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر مصر١٩٦٨
- كتاب قصص الحيوان في الأدب العربي القديم ؛تقديم وجمع د.داود سلوم دار الرشيد وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٧٩
- لسان العرب ؛ ابن منظور المصري ، دار صادر بيروت
- موجز تاريخ النظريات الجمالية ؛ ادفسيا بنكوف وسمير نوفا ، تعريب باسم السقا مطابع شركة لكنوبرس الحديثة .